بسم الله الرحمن الرحيم

ليلة تأبين فقيد الرواية العربية والعالمية / الطيب صالح

النادي الاجتماعي للجالية السودانية بالتعاون مع النادي الثقافي العماني

مسقط- سلطنة عمان



ورقةبعنوان: نضح الأصالة في أعمال الطيب صالح

إعداد وتقديم: عبد الواحد أيوب محمد حمدالنيل

مسقط في 29/مارس 200

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النور الذاتي والسر الساري في سائر الأسماء والصفات وعلى آله وصحبه وسلم

نضح الأصالة في أعمال الطيب صالح

1. مقدمة

يعتبرالأديب الكبير الطيب صالح من قلائل مبدعي الكتابة العرب الذين احتفلوا ببيئات أوطانهم وأظهروا حنينا وتقديرا لا تخطئه العين لمظاهرها وعناصر تكوينها حتى في أصقاعها النائية علاوةً على روح الأصالة العميقة التي تميزت بها هذه الأعمال والتي انعكست في كل عناصر كتاباته من محيط ولغة وشخصيات ومواقف وانطباعات. وقد لا يجانب المرء الحقيقة إذا ما زعم بأنه بمقدار ما احترم الطيب أصول مجتمعه وجذور نشأته بقدرما ارتفع سهم قدره الأدبي والروائي في أصقاع الأرض.

2. الأصالة ومظاهرها في أعمال الطيب صالح

أن الميزة البينة في كتابات الطيب هي التصوير الدقيق للمجتمع بتفاصيله الأصيلة وبخاصة مجتمع قرية ودحامد في الشمال الأوسط من السودان والتي دارت فيها معظم أحداث أعماله وشكلت القالب الذي استوعب مجمل أركان الصراعات الحضارية والفكرية والحياتية وحتى الفلسفية التي انبرى الطيب صالح لمعالجتها في قوالبه الروائية الراقية. وعندما تكون الأصالة هي القيمة الأعمق في كتابات رجل مثل أديبنا قضى معظم سني عمره في الغرب، واستهل كتاباته في فترة شهدت أعنف الإتجاهات العلمانية والتقدمية، فإن ذلك يستحق عظيم التقدير والإطراء. وأنا أسوق المبررات التالية التي أرى أنها قادت الطيب صالح إلى التحلي بهذه الروح الأصيلة في كتاباته:

أ. لأن بيئة الريف هي الأقدر على التعبير بصدق ووضوح عن أفكار صالح التقابلية من قبيل: مواجهة القديم مع الحديث الذي عبرت عنه دومة ودحامد، أو الشرق مع الغرب الذي عالجته موسم الهجرة، أو القرية والمدينة كما بدا في جوانب متناثرة من القصص، إلخ.

ب. خدمة هدفه في عكس الحياة السودانية بعمقها وصدقها وتراثها وهو ما يتوفر إلا في نواحي الريف والقرى حيث شفافة الحياة بعفويتها وبراءتها وأصلها بلا تبرج ولا تكلف، عكس حال المدن في الغالب.

ج. إضفاء رونق وإثارة على قصصه بما يخدم الغرض الأدبي والحبكي.

د. إظهار حنينه العميق تجاه موطن نشأته وهو شعور عمقته الغربة. وتظهر روح الأصالة في نَفَس صالح الروائي في الجوانب الآتية:

2.1 لغة الكتابة:(وهي لغة تلامس الواقع بخلوها من الرتوش والاستعارات مزج فيها كاتبنا بين درجات من الدارجة والفصحى وجعلها ملتصقة بالأجواء والمشاهد المحلية فارتقت بها إلى مستوى من الإنتشار والتمدد العالميين). يظهر في هذه اللغة عبارات فصيحة وأخرى دارجة وثالثة رسمية ورابعة غير رسمية وعامية، الخ. وهي لغة قد تستعصي في كثير من عباراتها الحوارية على غير السودانيين أو حتى على السودانيين غير المرتبطين بذلك الجزء من السودان وبخاصة الأجيال الجديدة. يمكن أن نستشهد عليها بالحوار التالي من حديث سعيد عشا البايتات مع ناظر المدرسة في ودحامدفي ضوالبيت(بندر شاه):

قال لي: يا بني آدم إنت عقلك فاقد؟ إنت تفتكر البلد دي ما فيها قانون؟ إنت سعيد الوسخان العفنان تتزوج بنتي أنا؟ قايل يخوِّفني. عليّ اليمين، أخوك ركز هادي الركزة. قلت له: هِي، بعد داك ما في جنابك، أفتح أضانك زين، أنا سعيد ودزايد ود حسب الرسول، عربي حر، عليّ اليمين أهلي في سودري يحجبو ضو الشمس، مالي أنا؟ مسلم موحِّد الله. أنا الوسخان العفنان دا اعرس بِتك. هِي بِتك شِن طعما. شينة ومعمّشِة وعزبة، وإن قعدت لي أبد الآبدين ما تلقى أخير مني. وغن أبيت كمان شايل لي يمين، أطلعك محاكم وأنزلك محاكم لا مِن أخد قروشي منّك".

2.2 مسرح قصصه : والمتمثل في قرية ود حامد بتقاطيعها الجغرافية والإجتماع-ثقافية وتقاليدها وشخوصها ورموزها، وقد تجلت روعة ملكة التوصيف في تعامل الطيب صالح مع هذه البيئة، ويكفي الجزء التالي في الإشارة إلى ذلك:

فها هي ذي بيوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الأخضر تشرئب بأعناقها أمامنا؛ وحميرنا تحث السير لأنها شمت بخياشيمها رائحة البرسيم والعلف والماء. هذه البيوت على حافة الصحراء، كأن قوماً في عهد قديم أرادوا أن يستقروا ثم نفضوا أيديهم ورحلوا على عجل. هنا تبدأ أشياء.. وتنتهي أشياء.. ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتي من ناحية النهر، وسط هجير الصحراء، كأنه نصف حقيقة وسط عالم مليءٍ بالأكاذيب.أصوات الناس والطيور والحيوانات تتناهى ضعيفة إلى الأذن

كأنها وساوس، وطقطقة مكنة الماء المنتظمة تقوّي الإحساس بالمستحيل. والنهر، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية، يجري نحو الشمال، لا يلوي على شئ، قد يعترضه جبل فيتجه شرقاً، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غرباً، ولكنه إن عاجلاً أو آجلا يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال، موسم الهجرة إلى الشمال، ص 79.

ولعل من أجمل اللوحات الوصفية التي جادت بها قريحة الطيب صالح هي وصفه – على لسان راويه- لطريق الرحلة من قريته إلى الخرطوم فيما يلي:

تركت زوجتي وابنتي في البلد، وسافرت في الطريق الصحراوي في سيارة من سيارات المشروع التي ذكرها محجوب. كنت أسافر عادة بالباخرة إلى ميناء كريمة النهري، ومن هناك آخذ القطار ماراً بأبي حمد وأتبرا إلى الخرطوم. لكنني هذه المرة كنت في عجلة من أمري دون سبب واضح، ففضلت اختصار الطريق. وقامت السيارة في أول الصباح، وسارت شرقاً حذاء النيل نحو ساعتين، ثم اتجهت جنوباً في زاوية مستقيمة وضربت في الصحراء. لا يوجد مأوى الشمس التي تصعد في السماء بخطوات بطيئة وتصب أشعتها على الأرض كأن بينها وبين أهل الأرض ثأراً قديماً. لا مأوى سوى الظل الساخن في جوف السيارة، وهو ليس ظلاً. طريق ممل يصعدويهبط، لا شئ يغري العين. شجيرات مبعثرة في الصحراء، كلها أشواك، ليست لها أوراق، أشجار بائسة ليست حية ولا ميتة. تسير السيارة ساعات دون أن يعترض طريقها إنسان أو حيوان. ثم تمر بقطيع من الجمال هي الأخرى عجفاء مضمرة. لا توجد سحابة واحدة تبشر بالأمل في هذه السماء الحارة، كأنها غطاء الجحيم. اليوم هنا شئ لا قيمة له، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحي في انتظار الليل. الليل هو الخلاص. وفي حالة تقرب من الحمى طافت برأسي نتف من الأفكار، كلمات من جمل، وصور لوجوه وأصوات تجئ كلها يابسة كالأعصار الصغيرة التي تهب في الحقول البور. فيم العجلة؟ سألتني: "فيم العجلة؟" قالت..الحمارة السوداء، اعرابي غش عمك وباعه الحمارة السوداء. وقال أبي: " هل هذا شئ يثير الغضب؟" عقل الإنسان ليس محفوظاً في ثلاجة. إنها هذه الشمس التي لاتطاق. تذوب المخ تشلّ التفكير.

2.3 الشخصيات الماثلة والمنتزعة من المحيط وتلك التي حفرت وجودها الإعتباري فيه: ولعل من ألطف ما رسمته ريشة صالح المبدعة بيانه لمجموعات أهل قرية ودحامد وسماتهم في عرس الزين: المعسكرالأول من الرجال الكبار العقلاء ، يتزعمه حاج إبراهيم، والفريق الثاني، وأغلبه من الشبان دون العشرين وهو فريق المغامرين والمتعلمين والمتمردين والكسالى ومن عجب أن زعيم هذه الفئة كان ابراهيم ودطه، والفريق الثالث، وقد كان أكثر المعسكرات وزناً، وهو فريق أصحاب النفوذ في البلد الذين تلقاهم في كل أمر جليل في البلد من مناسبات ومفاهمات حكومية وتفقدات إجتماعية وخدمية وخلافه.

2.4 مواضيع الروايات: لا أبالغ إذا قلت بأن أصالة كاتبنا تظهر في أقوى صورها في قصة موسم الهجرة إلى الشمال، بل وحتى أثناء توصيف المغامرات الجنسية التي يتعمدها بطل القصة؛ وذلك أن شبق الجنس لدى البطل ما هو رمز لسلاح الفحولة والرجولة ووسيلة لتحقيق انتصارات بروح الثأر من أهل الشمال (الغرب) مما أحقوه بأضرار في أزمان غابرة بمقدرات وثروات وخيرات أهل الجنوب. توضح الأمثلة التالية هذه المعاني:

أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجياًَ (موسم الهجرة إلى الشمال، ص 168).ثم هذا الحوار مع إيزابيلا سيمور حين قالت أن أمها اسبانية: فرد عليها مصطفى سعيد: هذا إذن يفسر كل شئ. يفسر لقاءنا صدفة، وتفاهمنا تلقائياً، كأننا تعارفنا منذ قرون، لابد أن جدي كان جندياً في جيش طارق بن زياد، ولا بدأنه قابل جدتك وهي تجني العنب في أشبيلية، ولابد أنه أحبها من أول نظرة، وهي أيضاً أحبته. وعاش معها فترة ثم تركها ورجع إلى أفريقيا، وهناك تزوج. وخرجت أنا من سلالته من أفريقيا، وأنتِ جئت من سلالته من أسبانيا، وأدرت مفتاح الباب بعد شهر من حمالرغبة، وهي إلى جانبي، اندلس خصب، وقدتها بعد ذلك عبر الممر القصير إلى غرفة النوم، ولفحتها رائحة الصندل المحروق والند، فملأت رئتيها بعبير لم تكن تعلم أنه عبير قاتل. كنت تلك الأيام حين تصبح القمة مني على مد الذراع، يعتريني هدوء تراجيدي. كل الحمى والوجيب في القلب، والتوتر في العصب، يتحول إلى هدوء جراح وهو يشق بطن المريض، الموسم، ص 52.

وفي لحظات إغوائه لايزابيلا سيمور: الطائر يا مستر مصطفى قد ضرب خيمتي، وأغرس وتدي في قمة الجبل أنت يا سيدتي قد لا تعلمين، ولكنك مثل "كارنارفون" حين دخل قبر توت عنخ آمون، قد أصابك داء فتاك لا تدرين من حيث أتى، سيودي بك إن عاجلا أو آجلا، ص 49.

وفي وصف صلته بجين مورس: لبثت أطاردها ثلاثة أعوام. كل يوم يزداد وتر القوس توتراً، قربي مملوءة هواء ، وقوافلي ظمأى، والسراب يلمع أماميفي متاهة الشوق، وقد تحدد مرمى السهم، ولا مفر من وقوع المأساة. وذات يوم قالت لي: " أنت ثور همجي لا يكلّ من الطراد. إنني تعبت من مطاردتك لي، ومن جريي أمامك، تزوجني". وتزوجتها. غرفة نومي صارت ساحة حرب. فراشي كان قطعةً من الجحيم. أمسكها فكأنني أمسك سحاباً، كأنني أضاجع شهاباً، كأنني أمتطي صهوة نشيد عسكري بروسي. وتفتأ تلك الإبتسامة المريرة على فمها. أقضي الليل ساهراً، أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب، وفي الصباح أرى الإبتسامة ما فتئت على حالها، فاعلم أنني خسرت الحرب مرة أخرى، ص 43).

ولعلي أجزم بأن القارئ يحتاج إلى ما يتجاوز مجرد القراءة المتأنية للجزء الأخير من هذه الرواية الرائعة ليكتشف ما يريد أن يلخصه راوي قصة موسم الهجرة حول ما حصّله من تجربة مواجهته مع الشمال وأهله:

دخلت الماء عارياً تماما كما ولدتني أمي. أحسست برجفة أول ما لامست الماء البارد، ثم تحولت الرجفة إلى يقظة. النهر ليس ممتلئاً كأيام الفيضان ولا صغير المجرى كأيام التحاريق. لقد أطفأت الشموع وأغلقت باب الغرفة وأغلقت باب الحوش دون أن أفعل شيئاً. حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر. تركته يتحدث وخرجت لم أدعه يكمل القصة. فكرت أن أذهب وأقف على قبرها. فكرت أن أرمي المفتاح حيث لا يجده أحد. ثم عدلت. أعمال لا معنى لها ومع ذلك لا بد من القيام بعملٍ ما. وقادتني قدماي إلى الشاطئ وقد لاحت تباشير الفجر في الشرق. سأنفس عن غيظي بالسباحة. كانت الأشياء على الشاطئين نصف واضحة، تبين وتختفي، بين النور والظلام. كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف، متحركاً كأنه ساكن لا صوت غير دوي النهر وطقطقة مكنات الماء غير بعيد. وأخذت أسبح نحو الشاطئ الشمالي. وظللت أسبح وأسبح حتى استقرت حركات جسمي مع قوى الماء إلى تناسق مريح. لم أعد أفكر وأنا أتحرك للأمام على سطح الماء وقع ضربات ذراعي في الماء. وحركة ساقي، وصوت زفيري بالنفس، ودوي النهر، وصوت المكنة تطقطق على الشاطئ، لا أصوات غير ذلك. ومضيت أسبح وأسبح وقد استقر عزمي على بلوغ الشاطئ الشمالي. وهذا هو الهدف. كان الشاطئ أمامي يعلو ويهبط، والأصوات تنقطع كلية ثم تضج. وقليلاً قليلاً لم أعد أسمع سوى دوي النهر. ثم أصبحت كأنني في بهو واسع تتجاوب أصداؤه. والشاطئ يعلو ويهبط ودوي الماء يغور ويطفو. كنت أرى أمامي نصف دائرة. ثم أصبحت بين العمى والبصر. كنت أعي ولا أعي. هل أنا نائم أم يقظان؟ هل أنا حي أم ميت؟ ومع ذلك كنت مازلت ممسكاً بخيط رفيع واهن: الإحساس بأن الهدف أمامي لا تحتي، وأنني يجب أن أتحرك إلى الأمام لا إلى أسفل. لكن الخيط وهن حتى كاد ينقطع، ووصلت إلى نقطة أحسست فيها أن قوى النهر في القاع تشدني إليها. سرى الخدر في ساقي وفي ذراعيّ، اتسع البهو وتسارع تجاوب الأصداء. الآن. وفجأة، وبقوة لا أدري من أين جاءتني، رفعت قامتي في الماء. سمعت دوي النهر وطقطقة مكنة الماء. تلفتُّ يمنة ويسرة فإذا أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب. لن أستطيع المضي ولن أستطيع العودة. انقلبت على ظهري وظللت ساكناً أحرك ذراعيّ وساقيّ بصعوبةٍ بالقدر الذي يبقيني طافياً على السطح. كنت أحس بقوى النهر الهدامة تشدني إلى أسفل وبالتيار يدفعني إلى الشاطئ الجنوبي في زاويةٍ منحنية. لن أستطيع أن أحفظ توازني مدة طويلة. إن عاجلا أو آجلا ستشدني قوى النهر إلى القاع. وفي حالة بين الحياة والموت رأيت أسراباً من القطا متجهة شمالاً. هل نحن في موسم الشتاء أو الصيف؟ هل هي رحلة أم هجرة؟ وأحسست أنني أستسلم لقوى النهر الهدامة. أحسست بساقيّ تجران بقية جسمي إلى أسفل. في لحظة لا أدري هل طالت أم قصرت تحول دوي النهر إلى ضوضاء مجلجلة، وفي اللحظة عينها لمع ضوء حاد كأنه لمع برق. ثم ساد السكون والظلام فترة لا أعلم طولها، بعدها لمحت السماء تبعد وتقرب والشاطئ يعلو ويهبط. وأحسست فجأة برغبة جارفة إلى سيجارة. لم تكن مجرد رغبة. كانت جوعاً. كانت ظمأ. وقد كانت تلك لحظة اليقظة من الكابوس. استقرت السماء واستقر الشاطئ وسمعت طقطقة مكنة الماء، وأحسست ببرودة الماء في جسمي. كان ذهني قد صفا حينئذٍ، وتحددت علاقتي بالنهر، إنني طافٍ فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه، فكرت أنني إذا مت في تلك اللحظة فإنني أكون قد مِتُّ كما ولدت، دون إرادتي. طول حياتي لم أختر ولم أقرر. إنني أقرر الآن أنني أختار الحياة. سأحيا لأن ثمة أناس قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولأن عليّ واجبات يجب أن أؤديها. لا يعنيني إن كان

للحياة معنى أو لم يكن لها معنى. وإذا كنت لا أستطيع أن أغفر، فسأحاول أن أنسى. سأحيا بالقوة والمكر. وحركت قدميّ وذراعيّ بصعوبة وعنف حتى صارت قامتي كلها تحت الماء. وبكل ما بقيت لي من طاقة صرخت، وكأنني ممثل هزلي يصيح في مسرح: " النجدة... النجدة".

هذا ما كان من شأن الأصالة الموضوعية التي حملتها رواية موسم الهجرة إلى الشمال بين دفتيها، أما عن الأصالة في باقي أعماله فهي سمة لا تكاد تفتقد في أيٍّ منها، وقد يكون الفرق هو أن الأصالة في موسم الهجرة متلبسة بمطويّ مفهومها العميق للمتأمل بينما هي ماثلة محسوسة في مجمل العناصر المكونة لباقي قصصه.

2.5 تصوير الدين والتدين: وقد عكس الطيب صالح من خلاله شذرات معبرة عن واقع التدين الصوفي التقليدي، والذي يتميز بعفويته وتجذره في أعماق المجتمع وتبلوره في ثقافته وعاداته وأدبه وسلوكه. ويعد تصوير التدين الصوفي بمظاهره الروحية من شخوص وممارسات وإمتداداته القصصية في الحكايات والكرامات المثيرة والمشوقة، ومعالمه الماثلة من أضرحة ومساجد وموروثات بكل إرتباطاتها وإيحاءاتها الوجدانية والإنفعالية هو من أقوى العناصر التي عبرت عن الأصالة في قصص الطيب صالح وأسهمت بقدر فاعل في إضفاء بهاء وعبق مميز وذلك للأسباب التالية:

أ. القيمة التاريخية والحضارية الراسخة للتصوف وأهله في السودان وبخاصة في محيط أحداث القصص.

ب. سعة التراث المتولد عن التصوف والذي يظهر في كل المظاهر الإجتماع-ثقافية من أسماء مدن وقرى ومديح وغناء واحتفالات وأساليب معيشة وخلافه .

ج. التصاق والتفاف الناس الفطري حول رموزه مما يشكل مسوغاً لعديد مظاهر الصراع الذي صورته أحداث قصص الطيب صالح من قبيل: (مقاومة الأهالي لمظاهر الحداثة حين تعارضت مع الموروثات؛ برفضهم إنشاء الطلمبة ومرور القطار يوم الأربعاء لتعارضها مع توقيت زيارتهم لود حامد) في دومة ودحامد، و إمتداد فكرة الصراع إلى حاضرنا.

5. **مشاهد وصور لتصوير التدين الصوفي:** وهو أمر حفلت به معظم قصص الأديب الكبير، ويمكن أن نقسمها حسب ورودها إلى المحاور التالية:

أ.حكايات الكرامات :ونستدل عليها بقصة الشيخ ودحامد في قصة "دومة ودحامد" **وكيف أنه كان من أولياء الله الصالحين وكان مملوكا لرجل فاسق، فكان يتكتم إيمانه ولا يجرؤ على الصلاة جهاؤاً حتى لا يفتك به سيده، فلما ضاق ذرعا بذلك هتف به هاتف ان أفرش مصلاتك على الماء فإذا وقفت بك على الشاطئ فانزل، فوقفت به المصلاة عند موضع الدومة الآن،** والقصة تدل على ثقافة الطيب صالح الصوفية لتواتر مثل هذه القصص في التراث الصوفي في محيطه الواسع وإطاره السوداني. ومما يدخل في الغرض نفسه:

ب. الإشارة إلى عمق الرباط الروحي بين الأفراد ورموز الصلاح: ويتضح ذلك في الروحية المبثوثة في قدسية شخص ود حامد الذي تلجأ إليه القرية عند الملمات التي تتجاوز طاقة تحملهم من قصة جارة الراوي والتي رقدت طريحة الفراش لشهرين تعاني من حمى شديدة و تورم في العنق.**جاءت هذه السيدة متحاملة على نفسها لدومة ود حامد و نادت بأعلى صوتها :" يا ود حامد! جئتك مستجيرة وبك لائذةً . سأرقد هنا عند ضريحك وتحت دومتك، فإما أن أمتّني و أما أحييتني ولن أبرح مكاني هذا إلا بإحدى الحالتين".(ص.45). " وتقلصت على نفسي وأنا أستشعر الخوف " تستمر المرأة في سرد القصة ثم تتابع قائلة:" وسرعان ما غلبتني النومة. وفجأة وفيما أنا بين النائمة و اليقظانة ، إذا أصواتٌ ترتل القرآن وإذا بنورٍ قد سطع كأنه شفرة سكين حتى عقد بين الشاطئين . فرأيت الدومة وقد خرت ساجدة "." وهلع قلبي ووجب وجيباً حتى ظننته سيخرج من فمي. ورأيت رجلاً عجوزاً ذو لحية بيضاء يغمره الوقار ويلبس ثوباً ناصع البياض وهو يقدم نحوي و الابتسامة تعلو وجهه". " ضربني بمسبحته برفق على رأسي وانتهرني قائلاً: " قُومي!"." وقسماً أنني قمت و ما أدري كيف قمت، وجئت إلي بيتي ولا أعلم كيف جئت ".** إن هذه بالطبع هي كرامةٌ يفعلها الأولياء و الصالحين بمدد وعونٍ من الله ومثلها الكثير مما هو مشهود ومدوّن منهم في أنحاء السودان.

ج. نثر بعض الإشراقات العرفانية والمعاملات الدينية:ومن أمثلتها ما أورده على لسان شخصية الشيخ نصرالله ود الحبيب وهو يوصي تلميذه الزاهد بلال بقبول مبدأ الزواج من حواء: **" يا بلال. إن دروب الوصول مثل الصعود في مسالك الجبال الوعرة.**

مشيئة الحق غامضة. يا بلال، إن حب بعض العباد من حب الله، وهذه المسكينة تحبك حباً لا أجده من جنس أهل الدنيا، فعسى الحق أن يكون أرسلها إليك لأمر أراده. عساه جلت مشيئته أراد لك أن تختبر مقدار حبك بميزان حب هذه المسكينة لك فإما صحوت وانقطع سبيلك وإما ازددت ظمأً إلى كأس الحب السرمدي ويكون سبحانه وتعالى قد أنفذ مشيئته بإذلالك فى إرادته القصوى، مريود (بندر شاه، ص 454)". وكذلك الإشارة اللطيفة إلى مسألة عرفانية منطوية في مقولة يفتح الله التي يستملها الناس في بيوعهم وكيف حدث بها الفتح المادي لمحجوب في قصة نخلة على الجدول: 30 جنيه مع خطاب ابنه حسن.

د. التصريح ببعض شذرات الثقافة الصوفية العميقة لدى الطيب صالح حسب ما يظهر في حكاية بلال مع الشيخ نصرالله ودحبيب، وفيها روح عالية من نفس المحبة والتفاني في خدمة الشيخ **: يملأ له ركوة صلاته، ويحضر له طعامه، وإذا مشى الشيخ في الحر، يحمل فوق رأسه مظلة خضراء كبيرة، وعندما نعت شيخه بقوله: " أنت القطب. أنت صاحب الزمان وأنا عبدك ومملوكك، (مريود، ص 450)"**. وهى عبارات متداولة عند أقوام التصوف لا يعرفها إلا من طالع كتبهم وغرف من معارفها.

هـ. الوعظ الخفي الرقيق والتشويق لمحطات التقوى مما **تحمله قصة انتقال بلال وكيف أنه مكث عاما واحداً بعد وفاة الشيخ ودحبيب، وأنه توفي مثله في نفس الساعة من نفس اليوم من أيام شهر رجب، فنادى بالآذان فكان كأنه مجموعة أصوات، يأتي من أماكن شتى ومن عصور غابرة، وإن ودحامد ارتعشت لرحابة الصوت، وأخذت تكبر وتكثر وتتسع، فكأنها مدينة أخرى في زمان آخر، ولما وقفوا للصلاة رأوا بلال يلبس كفنا، وكان الجامع غاصاً بخلق كثير، كان أمراً عجباً، كبر للصلاة كما كان يفعل أيام ود حبيب، ثم وقف ليصلي بهم، فلم يقف أمامهم حيث كان يقف الشيخ، بل وقف معهم في وسط الصف الأول، وهو على تلك الهيئة. قرأ سورة الضحى بصوتٍ فرح فإذا الآيات نضرة كأنها عناقيد كرم، وبعد الصلاة إلتفت إليهم بوجه متوهجٍ سعيد وحياهم مودِعا وطلب منهم ألا يحملوه على نعش بل على أكتافهم،وأن يدفنوه بجوار شيخه ودحبيب، على أن يتركوا بينه وبين الشيخ مسافة تقتضيها أصول الاحترام والتبجيل. بعد ذلك تمدد على لأرض عند المحراب وتشهدواستغفر، والناس ينظرون في رهبة ودهشة، ثم رفع يده كأنه يصافح أحداً وأسلم روحه إلى باريها. وحملوه من موضعه ذاك من الجامع إلى المقبرة، وقالوا إنه مشى في جنازته خلق كأن الأرض انشقت عنهم، ودفنوه عند الشروق فيما رووا، وأمّ بهم الصلاة رجلٌ مهيب لم ير وجهه أحد ولكن أكثرهم قال إنه كان كأنه الشيخ ودحبيب، وحدثوا أنه ما من رجل شهد وفاة بلال إلا وقد اشتهى أن تقبض روحه في تلك الساعة، فقد جعل مذاق الموت في أفواههم كمذاق العسل، مريود (بندر شاه، ص 41-440).**

و. الاستفادة من عطاء التصوف الأدبي والفلكلوري في تزيين رواياته ببعض المقاطع الفنية وربما التعبير عن مفضلياته الخاصة من هذا اللون من قبيل إيراد مقدمة المدحة الشعبية التالية:

نعم العبا وروّح بي سبل الفريش شاف العلم لوّح زار جد الحسين
نعم العبا وحادا بي سهل الفريش شاف العلم نادى زار جد الحسين
فرشوله الزبيب والتين والحبحب كاسات من حميا قالوا له هاك أشرب
زار جد الحسين (عرس الزين، ص،108).

5.1. **بين التدين التقليدي والتنظيمي:** وهو صراع أداره بلطف مقدرته في الرمز للتضاد بين التدين الصوفي العفوي في مقابل التدين المؤسساتي التنظيمي إن جاز التعبير،وهو ما أشار إليه د. علي عبدالله عباس في قصة عرس الزين عند مقارنة الزين بالإمام. وبقدر ما إحتفى صالح برموز التدين الصوفي المشتبك مع ناموس الحياة في بيئة شخوصه بقدر ما أظهر إهتزاز مظهر التدين المؤسسي أوالرسمي –إن جاز التعبير- وهو ما جسد في شخصيةالإمام في القرية . ففي الوقت الذي اختار صالح أطيب الدلالات لأسماء من وسمهم بالصلاح كالحنين، وود حامد ونصرالله والزين، اكتفى بنعت الإمام بوظيفته (الإمام) ولم يضيف له اسما وكأنما يريد أن يسلبه حميمية الإنخراط في خضم الأحداث، وهو أيضاً ما يبرر تصويره كالمصادم والمنكر الوحيد لشخصية الزين (المحبوب) . ربما يسعى صالح إلى بلورة رأى إزاء ألوان من النزاعات الدينية المذهبية التي تشهدها المجتمعات الإسلامية، بين فقهاء ومتصوفة، أو عقلانيون وروحانيون، ظاهريون وباطنيون، إلخ، والأمر مفتوح لمجال اجتهاد واسع.

6. رموز ومفاهيم:

استخدم الطيب صالح الرمز بقوة وإبداع واستفاد من عطاء البيئة ومظاهرها الطبيعية والحضارية المرتبطة بالتدين أيضاً في بلورة إشارات ورسائل؛ فالدومة والضريح وودحامد مثلا في دومة ودحامد يتخطيان إطار الدومة و الضريح ليرمزان إلى كل التقاليد و الموروثات التي تشكل تفاصيل الهوية السودانية؛ فالدومة ترمز إلى الأرض والنيل و الضريح إلى خصوصية المذهب التعبدي الصوفي النزعة لغالبية مواطني البلد وود حامد يشير إلى القدوة و المثل.

7. ثمار هذا التصوير وإنعكاسه الدائم على فلسفة الحياة:

طور هذا الإحساس بتبجيل التدين الصوفي الأصيل إلى اقتراح أفكار يمكن تلمسها في جوانب من كتابات الطيب صالح بما قد يؤسس لأفهام في مجالات حياتية متنوعة منها:

أ. في السياسة: ربط حالة الرخاء الطارئ الذي لمسه أهل ودحامد بعطاء هذا التدين من دعوات وبركات الصالحين، ولا أدل على ذلك من دعوة الصالح حنين لأهل القرية والتي أنتجت هداية ورخاء.

ب. تصميم السلوك الإداري والحضاري لموروثات المجتمع بما يدعم مجالات متعددة من إقتصاد، سياحة، إجتماع، أدب بإبقاء مظاهر التقاليد والتراث الإجتماعي من قبيل (دومة- ضريح- مزارع- خلاوي) وإدخال الحداثة التي تنسجم مع الأصالة ولا تهددها (سد مروي). وندلل على ذلك بعرض الكاتب مقترحه لاستضافة مظاهر الحداثة جنباً إلى جنب مع مقومات الأصالة قبيل نهاية دومة ودحامد على لسان راويه عندما صرّح قائلاً: **" الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعاً أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء- يتسع للدومة و مكنة الماء و محطة الباخرة" (ص.53)** ، وأعتقد أن هذا المفهوم هو تصوير لفلسفة خاصة في ترتيب وتكوين المجتمعات يحتفظ بالسمات الثقافية و الدينية و الاجتماعية على مر الزمن ويستجيب لمقتضيات الحداثة كذلك بما يدعم رصيد الأمم المادي والحضاري بتطوير موارد صناعات مهمة مثل السياحة والآثار.

8. **البصيرة الإبداعية:** وهي حسب اعتقادي من ملكات الوهب الرباني التي حظي بها الطيب صالح وقد تكون من ثمار تدينه وإبداعه وتتجلى في النظر الثاقب والإشراق المتفتح والذي جعله يعالج مواضيع لا تصدأ على مر الزمن بل يزيدها التقادم تلألأً وتجددا، ومن أمثلتها موضوع دومة ودحامد، وحفنة من تمر وحتى موسم الهجرة إلى الشمال.

9. خاتمة:

لقد إرتضع الطيب صالح حب بيئته وبلده وأمته وتدفق كأروع وأصدق ما يكون الكاتب حين ينتضي حسام يراعه للتبشير بواقع والإحتفاء به، وبمثلما إنغمس أديبنا في عشق بيئته وتزهد في محراب أصالتها، تمدد في رحابات الخلود وضرب في أسهام المجد، ولن تزال بئر الحنين العميقةناضحة بماء العراقة وترياق الإنتماء، وكأنه مثل بطله مريود إختارته الأقدار أن يعقد صلحاً بين الماضي والمستقبل ، ولعله يلخص في هذه الإلهامات التي أطلقها- مشخصاً أحد أبطاله- شيئاً من الأريج الذي سعى لنفثه:

" إنني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة، أريد أن أعطي بسخاء، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر. ثمة آفاق كثيرة لا بد أن تزار، ثمة ثمار يجب أن تقطف، كتب كثيرةٌ تقرأ، وصفحات بيضاء في سجل العمر، سأكتب فيها جملا واضحة بخط جرئ، وأحس بالإستقرار، وأحس أنني مهم، وأنني مستمر ومتكامل. " لا... أناالحجر يلقى في الماء، لكنني البذرة تبذر في الحقل"..

ألا رحم الله الطيب صالح وألحقه بنبيه صلى الله عليه وسلم الذي أحب وصالحيه الذين جسّد وشرفاء قومه الذين بمداد قلمه حدد.

المراجع:

- الطيب صالح: الأعمال الكاملة، مكتبة دار العودة، بيروت،2004.